جهود علماء تفسير القرآن في الحفاظ على أصالة اللغة العربية وتراثها
(المفسر البصري قتادة السدوسي نموذجا)

الغرض من البحث: النشر

أ.م. د. فلاح عبد الحسن هاشم

جامعة البصرة

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم علوم القرآن

الملخص

يهدف البحث إلى بيان أهمية القرآن في حفظ اللغة العربية أولاً ومن ثم وفي طول ذلك بيان الجهود التي بذلها علماء القرآن خصوصاً علماء التفسير وعلماء معاني القرآن وغيرهم وأهمية تلك الجهود في المحافظة على اللغة العربية وتراثها وأصالتها، وكان من بين هؤلاء العلماء الذين أسهموا في ذلك علماء العراق البصريين، وأبرزهم جهود الإمام قتادة بن دعامة السدوسي البصري.

اتسم البحث بمنهج وصفي ولم يكن معيارياً، ولهذا خلا من النقد وما يجب أن يكون، والهدف الأساس منه هو إبراز وتوثيق جهود المفسرين وإسهامهم في حفظ اللغة العربية وتراثها.

وكان المحور الأول في هذه الدراسة في أثر القرآن في المحافظة على أصالة اللغة العربية، والمحور الثاني في أثر علماء القرآن ممن عرف عنهم تفسير القرآن، والمحور الثالث في خصوص المفسر قتادة بن دعامة السدوسي البصري وأهمية جهوده العلمية والمعرفية خصوصاً القرآنية وما تعلق منها بلغة القرآن في الحفاظ على أصالة اللغة العربية وتراثها.

كلمات دلالية: (جهود) (علماء القرآن) (علماء البصرة) (تفسير قتادة).

المبحث الأول: أثر القرآن الكريم في الحفاظ على أصالة اللغة العربية

القرآن كلام الله وهو في اللغة – في أرجح الأقوال– لفظ مهموز، ومشتق، سواء كان مصدر قرأتُ، فهو مهموز اللام من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، على وزن فعلان كالرجحان والغفران والشكران، سمي الكتاب المقروء بالقرآن، من باب التسمية بالمصدر وإرادة اسم المفعول[١]. أو كان وصفاً على وزن فعلان، مشتق من القَرْء، بمعنى الجمع، ومنه: قرأت الماء في الحوض أي جمعته. قال أبو عبيدة: وسمي بذلك؛ لأنه جمع السور بعضها إلى بعض. وقال الراغب: لا يقال لكل جمع قرآنٌ، ولا لجمع كل كلام قرآن، قال وإنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة. وقيل: لأنه جمع أنواع العلوم كلها[٢].

وفي الاصطلاح هو وحي الله المنزل على النبي محمد (ص) لفظاً ومعنى وأسلوباً المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر [٣]. وهذا الوحي نزل بلسان عربي مبين، كما يقول الله تعالى: **(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)**[٤].

ومن المعلوم أن اللغة التي كتب بها القرآن هي اللغة العربية التي شرفها الله تعالى بأن تكون وعاء للقرآن ولكلامه ووحيه، وبهذا الاختيار أتيح لألفاظ هذه اللغة أن تؤدي معاني الوحي الإلهي وتبينه للناس، فكانت ألفاظ هذا القرآن – كما يقول الراغب الأصفهاني– لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمه، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة[٥].

وفي هذا السياق يقول الشاطبي: "وإن كان النبي (ص) بعث للناس كافة؛ فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعا للسان العرب، وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه، وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها"[٦].

واختيار الله تعالى لتكون العربية لغة الوحي ولغة قرآنه وكلامه ما كان إلا لأن في هذه اللغة عناصر خاصة كانت تؤهلها لتكون ذلك الوعاء، فقد حظيت بصفات وطابع خاص بها يميزها عن غيرها، فهي أكثر اللغات السامية تأثيراً في أصول الكلمات والمفردات، فقد اشتملت على جميع الأصول التي اشتملت عليها أخواتها من اللغات السامية أو على معظمها، مضافاً إلى هذه الميزة، قد جمعت من المفردات والمترادفات ما لم تجتمع للغة سامية أخرى في مختلف أنواع الكلمات، اسمها وفعلها وحرفها[٧].

كما أنها أوسع اللغات مدى– كما يقول الرافعي– وأغزرهن مادة، وأوفاهن بالحاجة الحقيقية من معنى

اللغة؛ لكثرة أبنيتها، وتعدد صيغها، ومرونتها على الاشتقاق، بنحو أفضى إلى استغراق اللغات بجملتها، مع أنها أقل هذه اللغات أوضاعًا، حتى إن المستعمل منها لا يتجاوز ستة آلاف تركيب[٨].

ويؤكد هذه الحقيقة ابن فارس بقوله: إن "لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، قال تعالى: **(بلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)**[٩] فوصفه بأبلغ ما يوصف به الكلام، وهو البيان، وقال تعالى: **(خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)**[١٠] فقدم ذكر البيان على جميع ما توحد الله بخلقه، فلما خص تعالى اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه"[١١].

ومع هذا الخصائص المهمة للغة العربية لا يمكن **لذاتها** أن تحافظ على نفسها من تأثيرات التطور الزماني، فإن كل لغة خاضعة في بنيتها واستمرارها للتطور، ولا يمكن للسنن التاريخية أن تستثني أي لغة من التأثير مهما علا شأنها، فلابد أن يطالها هذا التأثير، ولا يقال إن العربية مستثناة من ذلك لكونها لغة إلهية، بزعم أن أصل اللغة العربية كانت لغة آدم في الجنة؛ فلما عصى ربه سلبه العربية وأعطاه السريانية ثم تاب فردها إليه[١٢]. فإن ذلك من المغالاة يجب تجنبه.

نعم ثمة إجماع على أن إسماعيل عليه السلام أصل العربية المضرية؛ كما قال ابن جني: "وإنما صارت لغتهم الأصل" لأن العربية أصلها إسماعيل عليه السلام وكان مسكنه مكة"[١٣]. لكن هذا لا يعني بالضرورة أن اللغة متوارثة في قريش من عند إسماعيل عليه السلام وتكون قد بقيت زهاء خمساً وعشرين قرناً، وهي جامدة على وتيرة واحدة، فهو رأي لا يصمد أمام العقل وإنما سوغه من يريد إعطاء اللغة صفة إلهية لمنزلة القرآن منها، وما كان إلهيا فهو كذلك إلى الأبد؛ غير أن التاريخ لا دين له في نسقه الزمني وإنما التحول والتنوع من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

نعم لا يبعد أن لسان إسماعيل بالعربية وضع أصلها بما أضاف من لغة "جرهم" الى لغة قومه، وبذلك انطلق لسانه من الكلام في مذهب أوسع منحى وأوضح دلالة، وهذا معنى ما ورد في الحديث من أن" "أول من فتق لسانه بالعربية هو إسماعيل" وعلى هذا يصح الادعاء إن أول تهذيب حدث في العربية يرجع الى عهد إسماعيل[١٤].

ثم توسع التهذيب والتنقيح لهذه اللغة العظيمة في عهد قريش وهي القبيلة الأخيرة في تاريخ الفصاحة، وذلك أن قريشا كانوا ينزلون من مكة بواد غير ذي زرع وكانت الكعبة شرفها الله وجهة العرب وبيت حجهم قاطبة في الجاهلية فكان لكل قبيلة منهم صنم يحجون إليه حتى وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه منها، فارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها، وبذلك مرنوا على الانتقاد؛ حتى رقت أذواقهم، وسمت طبائعهم، وقويت سلائقهم؛ وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عما في النفس[١٥].

وعندما نقارن تأثير التطور في سائر اللغات غير العربية نجد أن هناك تغيراً كبيراً حدث على جميع المستويات خصوصاً في الدلالات، كاللغة الإنكليزية التي يعسر فهم دلالات نصوصها القديمة للجيل الحاضر، بل هناك لغات اندثرت تماماً بفعل التطور مثل اللغة الفينيقية واللغة المصرية القديمة الهيروغليفية واللغة الآشورية[١٦].

إلا أن اللغة العربية لبثت محتفظة بكل مستوياتها اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وهذا الصفة لم تكن لولا القرآن الكريم.

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن جعلها محفوظة بحفظ القرآن باقية ببقائه، كما قال الله تعالى: **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**، ودل هذا الوعد الإلهي أن اللغة التي جسدت كلام الله تعالى هي متعلق هذا الوعد العظيم. هذه اللغة بما تحمل من عناصر تركيبية ونحوية وبلاغية وفصاحة وجمال.

بل إن عالمية اللغة العربية كان بفضل القرآن والإسلام، وقد أكد هذا المعنى بعض المستشرقين مثل الألماني نولدكه بقوله: "إن العربية لم تصر لغة عالمية حقاً إلا بسبب القرآن والإسلام، وبهذا صارت العربية مقدسة"[١٧].

ولو أردنا أن نرصد تأثير القرآن في هذه اللغة، يمكن أن نحدد ذلك ببعض النقاط:

أولا: زيادة الرغبة في تعلم العربية تبعاً للرغبة في أداء العبادات وفهم القرآن وتعاليمه وإرشاداته، فعندما تكون لغة الدين الإسلامي هي اللغة العربية ولغة نصوصه هي اللغة العربية سواء النصوص القرآنية أم نصوص النبي وأهل بيته وصحابته الذين نقلوا الدين بمروياتهم، حتماً سيسهم ذلك في تعلم تلك اللغة العربية. يقول الرازي: "تفتقر سائر اللغات، خصوصية انفردت بها اللغة العربية، هي شدة حاجة الناس الى معرفتها، تبعاً لحاجتهم لمعرفة القرآن وألفاظه وأحاديث رسول الله والأئمة والصحابة والتابعين وما موجود في الشريعة من الأسماء في أصول الفرائض والسنن مما يكون الجهل به نقص ظاهر على المرء المسلم"[١٨].

وكأن في اللغة العربية سرٌّ خالدٌ يتمثل في الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصريح ويحكم منطقاً وإعراباً بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤداها[١٩].

ويعدها من روائع تأثير القرآن في اللغة العربية، فإن وجوب أداء القرآن والعبادات بنفس اللغة دون غيرها، ولا يجوز الأداء بالترجمة جعل المسلمون يتجهون إلى أن يرتلوا القرآن بلغته العربية ويحافظوا على تجويده ويفسروه لأبناء لغاتهم.

وهذا بخلاف الكتب المنزلة الأخرى فالتوراة مثلا لا يقرأها بلغتها العبرية إلا أحبار اليهود ونفر ممن تفرعوا لدراستها أما سائر اليهود يقرؤونها بلغة سكان البلاد التي يعيشون فيها. واقتصرت قراءته على العلماء فقط باللغة العبرية والسريانية واليونانية[٢٠].

ثانياً: أصبح القرآن المعيار والقانون في تنقيح اللغة العربية بيان أصالتها، فيكون مضافاً للشعر وكلام العرب وخطبهم، فكلما ابتعدنا عند العصور الأولى للغة العربية كلما احتجنا إلى قانون وميزان نحتكم له في معرفة صحة الكلام من سقمه، وليس ثمة أجلى من ميزان القرآن وكلامه، "فالجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وقيامها في تربية الملكة وإرهاف المنطق وحل الذوق مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب وردها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا فيه وصلتنا به حتى كأنه فينا وحفظها لنا منطق رسول الله ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم عند التلاوة تدور في أفواهنا وسلائقهم هي تقيمنا على أوزانها"(٢١).

ثالثاً: الحفاظ على الدين النابع من شعور المسلم يسهم في تضافر جهود علماء العربية وعلماء الإسلام والشريعة في درء الأخطار في وقت التدهور والانحطاط الذي تتعرض له كل اللغات في العالم، وهذه الجهود منعت اللغة العربية من الانصهار في غيرها من اللغات ومنع تسرب كل ما هو دخيل عليها من الألفاظ، ومن هنا لم نجد اللهجات العامية أثرت بشكل بنيوي على اللغة.

ولهذا عندما ما تقهقرت اللغة الدولة العربية، وتقهقرت معها الحضارة الإسلامية خشي أن تندثر لغة تلك الدول وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على أمرها غير أن اللغة العربية قد استعصت على نكبات الدهر بفضل القران(٢٢).

رابعاً: ثبات واستقرار اللغة العربية، مزية تفردت بها اللغة العربية عن سائر اللغات وهي أثر من آثار القرآن الكريم، فإنه له الفضل في الاستقرار الصوتي للغة العربية، فالإعجاز في نظم الكلام وفي دقة اختيار المفردات وفي التناسب الصوتي للكلمات مع المعاني المقصودة مضافاً للإعجاز في الفصاحة والبلاغة كل ذلك أسهم بلا شك في استقرار اللغة وثباتها.

وينعكس ذلك بثمرة مهمة تتمثل في تواصل الفهم بين الأجيال للنصوص القديمة والتراثية، بخلاف اللغات الأخرى التي أصبحت صعبة الفهم بمجرد أن مر عليها أكثر من أربعة قرون كاللغة الإنكليزية التي يعسر فهم دلالات نصوصها القديمة للجيل الحاضر.

وتنعكس أيضاً على أن حدود تجاوز اللغة المعاصرة بكل مستوياتها نتيجة التطور عن اللغة العربية الفصحى بخلاف معظم اللغات الحية التي تغير وجهها بصورة أضحت متباينة مع اللغة الأصل تكاد تكون لغة أخرى(٢٣).

خامساً: استحداث مفردات جديدة في معان خاصة لم تكن متوفرة في اللغة العربية المستعملة وقت نزول القرآن، مثل الإيمان والكفر والصلاة والصيام والزكاة والحج والمغفرة، وما تفرع على ذلك من مفردات زخرت بها العلوم الشرعية، مثل التوحيد والفقه والتفسير والنحو والصرف ونحو ذلك، كلها نشأت في رحاب القران الكريم للمحافظة عليه من اللحن ولمحاولة فهمه والوقوف على أسرار معانيه.

يقول ابن فارس في سياق حديثه عن استحداث القرآن لألفاظ ومصطلحات جديدة: " كان مما جاء في

الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق. وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق. ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمنا. وكذلك الإسلام والمسلم، إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء. وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر. فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع. ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم: " فسقت الرطبة "إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق الأفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه.

ومما جاء في الشرع الصلاة وأصله في لغتهم: الدعاء. وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود، وإن لم يكن على هذه الهيئة، وكذلك الحج، لم يكن عندهم فيه غير القصد، وسبر الجراح، ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره، وكذلك الزكاة، لم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية النماء، وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لإطالة الباب بذكره"[٢٤].

سادساً: أسهم القرآن الكريم بتهذيب اللغة العربية من الألفاظ الغليظة والخشنة والموحشة الثقيلة على السمع مثل كلمة "الهعخع" و"افرنقعوا" وغير ذلك، فعدم استعمالها في القرآن أشعر بعدم بلاغتها وفصاحتها، فندر تداولها، وكل ذلك ببركة القرآن الكريم.

لقد ارتبطت اللغة العربية واندكت بالقرآن اندكاكاً شديداً، يتعسر الفصل بينهما، فأضحت اللغة العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، وقد اجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته [٢٥].

سابعاً: إن تعلق القرآن باللغة العربية أسهم في تدوين علوم القرآن مضافاً لعلوم اللغة العربية، ولولا الإسلام والقرآن لم تحظ اللغة العربية بما حظيت به من خدمة بتدوين علومها وتبويب مسائلها وتتابع أجيال فأجيال على النظر فيها جمعاً وتأليفا وتقعيداً وبحثا عن أوجه جمالها وإعجاز قرآنها وتمجيدا لها وتعظيما ليس من أبنائها فحسب، بل من ذوي الأصول غير العربية الذين هجروا لغتهم الأم وتعصبوا للغة العربية كالجاحظ وأبي حاتم الرازي وأبي علي الفارسي وأحمد بن فارس وأبي حيان التوحيدي الذين رأوا أن اللغة العربية لم يكن اختيارها للقرآن عبثاً بل من رب العالمين ذي الخلق والأمر وكل شيء عنده بحكمة ومقدار [٢٦].

المبحث الثاني: مفسرو القرآن وأثرهم في المحافظة على أصالة اللغة العربية

قلنا في نهاية المحور الأول أن تدوين علوم القرآن كان أحد الآثار التي نتجت عن ارتباط القرآن باللغة العربية؛ فنشأت دراسات علوم القرآن بفروعها المختلفة متعلقةً بالقرآن الكريم؛ فكان القرآن هو محورها، والدراسات المتعلقة بالتفسير كانت الأهم وتمثلت في توضيح آيات القرآن وتبين معناه واستخراج الأحكام الشرعية منه، وقد كان معظم المفسرين من علماء اللغة العربية، وقلما تجد عالماً منهم لم يكن مقرئاً أو مفسراً.